المحاضرة الخامسة، الكتاب القديم – كتاب الأمالي لأبي علي القالي ص٩٢- ٩٣

(مطلب ما وقع بين سبيع بن الحارث و ميثم بن مثوّب من المخاصمة بمجلس مرثد الخير، وخطبته في شأنهما واصلاحه ذات بينهما، وشرح غريب ذلك).

تناول أبو علي القالي في كتابه الأمالي نصّا جاء فيه أخبار عن العرب، وتضمّن جانبا من الخطب، وما دار فيه من حديث بمجلس أحد ملوك اليمن، قام فيه بإصلاح بين اثنين من رؤوس العرب ووجهائها، فقد جرت بينهما خصومة وبلغت مبلغها من الغيظ والعداوة والشحناء ، وهو ما جرى مع:(سبيع بن الحارث، وميثم بن مثوّب)قال: (تنازعا في الشرف حتى تشاحنا وخيف أن يقع بين حيّيهما شرّ فيتفانى جذماهما)، وذكر في الخبر أنّ(مرثدا)ويسمّى مرثد الخير(قيلا) والقيل هو الملك ، وكان حدبا على عشيرته محبا لصلاحهم، فبعث إليهما (مرثد) فأحضرهما ليصلح بينهما وأبدى كلاما بليغا فصيحا يحذّرهما وينبّههما عن خطورة ما سيقع بينهما من حرب تؤدي الى البغض والعداوة، وما تؤول إليه حالهم إذا أصروا على العناد، ومالوا وركبوا طريق الشرّ، وكذلك استمع إليهم بما أبداه كل فريق من حجة يدافع بها عن موقفه الشريف من حيث الحسب والنسب وما دار بينهما من تفاخر، والخوض في الأمور بشكل عشواء، ومن عدم تروّ واختلاط الحق بالباطل بسبب ما تجرّه العصبية من بغض وعداوة، وقوله: (وخيف أن يقع بين حييهما شرّ فيتفانى جذماهما)، أي خشي أن تقع الحرب بينهما، ومعنى (حييهما)أي قبيلتاهما و(يتفانى) من الفناء وهو القضاء والانتهاء، أي يفنون ويستأصلون، (جذماهما)أي يفنى أصلهما بهذا التباغض والتناحر.

ثم بدأ الملك(مرثد الخير) خطبته البليغة محذّرا بشدة من عاقبة ما تؤول إليه هذه الخصومة وهذه العداوة، وهذه الشحناء فإذا وقع السيف بينهم وأريقت الدماء فيبلغ الأمر غايته وخطورته، فإذا حصل ذلك فستبقى عداوة دائمة مستحكمة، فقال: (إن التخبّط وامتطاء اللجاج، واستحقاب اللجاج سيقفكما على شفا هوّة في تورّدها بوار الأصلية، فتلافيا أمركما قبل انتكاث العهد ، وانحلال العقد، وتشتّت الألفة، وتباين السهمة)، وهنا يمكن أن نبيّن الألفاظ الواردة في النصّ كي يتّضح المعنى، فقد بدأ بوصف هذا النزاع وهذا التخاصم، وعدم التروي والاحتكام الى العقل بأنه نوع من التخبّط ، وعدم الصواب أو فقدانه، والخوض في الأمور بشكل عشواء وعدم انتظام، بسبب ما تجرّه العصبيّة ، و(الهياج) في قوله: (وامتطاء الهياج)، هو أن يرتكب الإنسان حمقا وعصبية، ويركب رأسه، وهو الهيجان والغليان والإثارة في النفس ، وقد أضافه الى لفظة(امتطاء)، وكأنما الإنسان يمتطي الهياج ويتخذه مطيّة ، وهذا من باب الاستعارة؛ لأن الامتطاء لظهر الدابة فاستعاره الى لفظ (الهياج)، وكذلك قوله (واستحقاب اللجاج)، فاستحقاب على وزن(استفعال)، وهو مأخوذ من الحقيبة أو من الحقاب، والحقيبة ما يجعله الرجل من متاعه من خرج أو غيره فيه، وحقيبة الجمل هي التي تكون وراء الرجل على ظهره تحشى تبنا أو حشيشا، وكذلك يأتي (الحقاب) بمعنى البريم وهو ما تشدّ به المرأة وسطها، والبريم خيط ، وكأنما يريد أنه احتزم اللجاج وجعله في وعائه وهي استعارة . لقد نبههم ان هذا العناد سينتهي الى عاقبة خطرة تجعلهما على شفا هوّة، أي السقوط في المنحدر كناية عن العاقبة السيّئة التي تؤدّي الى البوار وهو الهلاك كما قال: (تورّدها بوار الأصيلة)، أي هلاك الأصل أي أصلكما وحسبكما، وكذلك تؤدّي الى انقطاع

الصلة والرحم، وجاء الكلام المتقدم وهو: (إن التخبّط وامتطاء الهياج..) يعدّ سببا لهذه النتيجة غير المحمودة .

ثم أمرهما بقوله: (فتلافيا)وهو فعل أمر مبني على حذف النون ؛ لأنه مثنى، والألف ضمير متصل في محل رفع فاعل، وهو يأمرهما أن يدركا أنفسهما مما هم فيه، وما ستؤول إليه حالهما قبل فوات الأوان وامرهما في هذا النزاع، وقوله :(قبل انتكاث العهد)، أي نقض العد واخلافه وقد ورد في القرآن الكريم :((وإن نكثوا ايمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلّهم ينتهون))- التوبة -١٢و(انحلال العقد)، أي سيؤدي هذا الأمر الى انحلال ما سينتهي بفرقتكم وتبدّد شملكم، وقوله: (وتباين السّهمة) بضمّ السين وتضعيفها، أي ما يوصلكم من اختلاف في القرابة، ثم ينتقل في الكلام الى تصوير ما هم فيه من النعمة والفسحة والألفة، كي يعظم في نفوسهم هذا العيش الرغيد فيصعب عليهم تركه والتفريط فيه لئلا يقبلوا على الحرب ومآسيها، فقال: (وأنتما في فسحة رافهة، وقدم واطدة، والمودّة مثرية ،والبقيا معرضة)، إذ أراد أن يصوّر اجتماعهم وألفتهم، ومعنى الفسحة الرافهة، أي الناعمة، يريد أن حالكم الآن تعيشون متآخين متآلفين، وقوله: (وقدم واطدة)، أي تامة راسخة ثابتة ، يشير بهذه الاستعارة الى استقرار حالهم وعدم تنازعهم، (والمدّة مثرية) مأخوذة من الثرى وهو التراب النديّ، ويدلّ معناها على الكثرة في الشيء، يقال أثرى الرجل إذا كثر ماله، وقوله: (والبقيا معرضة)، أي بقاؤكم على ما أنتم عليه ممكنة، ثم يحذّرهم ويذكّرهم مما يحصل للعرب من تناحر وغزوات وحروب دامية، تأتي على الأخضر واليابس من غير فائدة بقوله: (فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصيح ،وخالف الرشيد، وأصغى الى التقاطع)، ولفظة (النصيح) يريد النصح، (والرشيد) يريد الرشد، وقوله: (ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم)، أي ما انتهت إليه العاقبة وهي نهاية الشيء وعقبه، (وكيف كان صيّور أمورهم) . و(الصيّور) هو الأمر الذي يرجع إليه، أي كيف يصار الى أمورهم ، وقوله:(فتلافوا القرحة)، عبّر عن هذا النزاع والتخاصم والشحناء بالقرحة، وهو الداء الذي يصيب المخلوق من الجروح والتقرّح ، وقوله: (قبل استفحال الداء)، أي كأنما يصبح هذا الأمر كبيرا متشعّبا مستفحلا، أي قويّا وهو مأخوذ من قوّة الفحل .

بعدها يذهب محذّرا من هذا التناحر، حتى يصل الى خطورة إراقة الدماء، عندما يبلغ الأمر غايته وخطورته، فإذا وقع ذلك تبقى عداوة دائمة فقال: (فإذا سفكت الدماء استحكمت الشحناء)، أي عمّت البغضاء، وإذا حصل ذلك كما قال: (تقبّضت عرى الإبقاء)، أي قطعت وانفصمت، وهنا استعارة إذ جعل للإبقاء عرى متّصلة أي حلقات يربط بعضها بعضا، يريد التوجّه الى التواصل والألفة والقرابة، فإن ذلك سيزول إذا حصلت البغضاء، وشمل البلاء ، أي عمّ .

بعدما وعظهم هذا الملك بهذا الكلام الحكيم، تكلّم كل منهما ليبيّن موقفه من هذه الخصومة، كي يبرّر ما حصل بينهما فبدأ(سبيع) قائلا : (أيها الملك إن عداوة بني العلاّت لا تبرؤها الأساة، ولا تشفيها الرقاة، ولا تستعقل بها الكفاة) فقد بدأ حديثه بكلام فيه تمثيل عن عادات العرب، جعله شاهدا على ما يقول كي يصل الى مرامه، فشبّه هذه الشحناء التي وقعت بما يقع بين الإخوان من بني العلاّت، ومعنى(العلاّت) هم الإخوان من أب واحد وأمهاتهم متعدّدة، فأراد أن العداوة تقع بينهم لا يبرؤها الأساة ، أي الأطبّاء، وتشفيها الرقاة، أي الذين

يعملون الرقية وهي التعويذة، ولا يستعقل بها الكفاة، أي أهل الكفاية والعقل، وأرجع ما هم فيه الى الحسد الواقع بينهم، الكامن المخفي في صدورهم، وجاء في كلامه هنا تضّاد ومفارقة بين حالتين الأولى هي ما يقابلونه من حسد وضغينة من الطرف الأول، ولكنهم مع هذا إذا أصابهم الرهب والخوف من أمر فهم ردء أي عون لهم في الملمّات إذا رهبوا، أي أصابهم الرهب والخوف من أمر يلمّ بهم، وكذلك هم غيث إذا أجدبوا، أي يرفدونهم في حالة الجدب والقحط والامحال، والعرب كثيرا ما تواجه هذه الأزمات، (وعضد إذا حاربوا)، عبّر عن العضد وهو الساعد في اليد عن القوّة والسند لهم في وقت الحرب، وكذلك(ومفزع إذا نكبوا)، أي في النكبات والمحن فيفزعون إليهم.

ردّ (ميثم) ولفظه بكسر الميم وسكون الياء وفتح الثاء، وليس بفتح الميم كما يرد على الألسنة كثيرا، على قول (سبيع) مخاطبا الملك(مرثد الخير)، فابتدأ كلامه بجملة شرطية بقوله: (من نفس على ابن أبيه الزعامة وجدبه في المقامة، واستكثر له قليل الكرامة كان قرفا بالملامة، أي من حسد، والحسد معروف وهو تمنى زوال نعمة غيرك وتطمع فيما عنده، وهو ينفي ذلك عنده وعند قومه تجاههم، وهو يقسم بقوله:(والله ما نعتدّ لهم بيد إلا وقد نالهم منّا كفاؤها) .

ومعنى قوله(الزعامة)، أي الرئاسة، وقوله (وجدبه في المقامة) عابه في المجلس، ثم يأتي جواب الشرط بقوله (كان قرفا بالملامة)، أي خليقا ومستحقا أن يلام على ذلك، و(اليد) تعني الفضل تقول لك علي يد بيضاء، أي فضل منك علي، وقوله:(إلا وقد نالهم منا كفاؤها)، أصابهم منا الكفاية والزيادة في العطاء، وإذا ما قدّموه لنا من حسنة فإنهم يقابلونه بالمثل، وهو قوله (بشرواها)، وكذلك هم يجزون لهم الحسنات إذا ما أحسنوا إليهم ، وقوله:(ولم تنزعنا أعراق السوء ولا إياهم)، أي ليس بنا أصل وعرق يحملنا على السوء، ثم يستفهم فيقول:(فعلام مطّ الخدود وخزر العيون)، وهنا كناية عن الضغينة والحقد الذي عبّر عنه بمطّ الخدود، و(الجخيف) هو التهديد، و(التصعّر) هو التكبّر، و(البأو) كذلك التكبّر، ثم عبّر بقوله مستفهما ومنكرا هذا التكبّر، وهذه الضغائن بقوله:(أ لكثرة عدد، أم لفضل جلد، أم لطول معتقد)، أي لم تكونوا بأكثر عدد منّا، ولا بكثرة فضل، ولا بقوة ومواجهة للملمّات والجلاد، وقد استشهد بقول أبي الاصبع العدواني:

لاه ابن عمّك لا أفضلت في حسب ولا أنت ديّاني فتخزوني

(لاه)، أي لله وهو تعجب جار ومجرور في محّل رفع خبر مقدم و(ابن) هو المبتدأ المؤخر، وهنا أراد أن ينفي الفضل بينهما من حيث النسب والحسب، وكذلك قال: (ولا أنت ديّاني فتخزوني)، أي لم أكن مدينا إليك فتقهرني.

ثم ذكر أن الأمور تجري على ثلاثة: (حرب مبيرة)، وهي الحرب المهلكة، أو (سلم قريرة)، والسلم ضدّ الحرب والاستقرار، أو(مداجاة وغفيرة)، أي مساترة وغفران، ثم قال لا تنشطوا عقل الشوارد ، أي لا تحلّوا ما كان مبرما بينكم من وئام والتحام، (ولا تلقحوا العون القواعد)، ولفظ (اللقاح) مستعار، وهو مثل أصله في الإبل يقال لقحت الناقة إذا حملت وألقحها الفحل، ثم ضرب مثلا للحرب إذا ابتدأت ، والعون جمع عوان، وهي الثيّب من المرأة التي ذهب زوجها، ويقال للحرب عوان إذا كان قد قوتل فيها مرّة بعد مرة، و(تؤرّثوا)، أي

تذكّوا نيران الأحقاد، يريد تثيرونها ، كأنما تلقون عليها حطبا فتهيج، وبيّن أن الحرب متلفة وهي الجائحة التي تستأصلكم ، ومعنى(الجائحة) هي الاستئصال، و(الأليلة) هو الثكل، وقوله:(وعفوا بالحلم أبلاد الكلم)، أي استروا بحلومكم وعقولكم آثار الكلم ، أي وجّهوها الوجه الحسن .